الفصل الأول

المقدمة

« إذا صحبت الفطنة بالحياة ، والمهارة فى العمل ، التفكير الواضح والسلوك النبيل ، كان الفوز نصيب الانسان على الدوام . ذلك لأن التنشئة السليمة تحتل فى حياتنا مكانا أعظم من المكان الذى يحتله الذكاء » .

أ . ب. هربرت فى كتابه « الإنجليزى »
A. P. Herber : The Englishman.

كثيرا ما يلاحظ أن الذكاء فى انجلترا عرضة للشك وللازدراء ، فى حين أنه فى فرنسا موضوع إعجاب وتقدير . ويظهر هذا التقدير عند الفرنسيين من شغفهم بالمناقشات ومن إصرارهم على وجوب الدقة والوضوح فى التعبير ، ومن تأثرهم الشديد إذا وصفناهم بالغباء والسخف ، فى حين أن رأينا نحن الإنجليز ـ الذى هو على النقيض من هذا ـ يظهر فى تفضيلنا الخلق والسلوك ، والقلب الطاهر على التفكير الواضح ، وفى اهتمامنا بما هو نافع ، وبما هو متفق مع الأخلاق ، وفى قلة استخدامنا لكلمة « ماهر وذكى وعبقرى » ومن الواضح أننا لا نقدر الذكاء فى ذاته ، فنحن نعتبر التفكير المجرد انحرافا عن النشاط العملى ، وأنه مصدر خطر على عقائدنا التى نتمسك بها . ويقول « مادار ياجا » [1] وهو من الذين يعرفون الشعب الانجليزى حق المعرفة « ان الرجل الانجليزى لا يثق بالتفكير » [2]

---

(١) Madariaga

(٢) Englishmen, Frenchmen, Spaniards.

ولا يتضح تفضيلنا العمل على التفكير ، قدر ما يتضح فى الخطب العامة التى يلقيها البارزون من مواطنينا . ومنذ وقت قصير ذكر أحد مديرى البنوك الخاصة لمحرر جريدة التيمس [١] أن « السادة الأقدمين الذين كانوا يثيرون إعجاب الناس » والذين كانوا يرأسون البنوك الخاصة يرجعون الفضل فى نجاحهم إلى « أخلاقهم الفاضلة » وإلى أنهم « نشأوا من أسر طيبة » وإلى أنهم كانوا يديرون أعمالهم « بأكثر مايمكن من الأنفة والكبرياء » . وهو يرى أن عدم تدريب هؤلاء الرجال تدريباً خاصاً « قد ساعدهم أكثر مما وقف فى سبيلهم كما ساعدتهم على ذلك ضآلة معرفتهم بالناحية الفنية من عملهم » .

ومنذ ثلاث سنوات دعى أيضاً عدد كبير من رجال الأعمال البارزين لكى يعبروا عن آرائهم بصدد الصفات التى تؤدى إلى النجاح فى التجارة . وقد مال الجميع ماعدا واحداً أو اثنين إلى التقليل من شأن التدريب الخاص، وأشاروا إشارة عابرة إلى حاجة المشتغلين بالتجارة إلى شىء من الذكاء أو القدرة ، ولكنهم أبرزوا أهمية الصفات الخلقية التى مجدها صامويل سميلز . ومع أن هذه الآراء قد وصفت بأنها « لاتكاد تتضح أكثر من وضوح الملاحظات التى يبديها المعمرون عندما يدعون لبيان السر فى طول أعمارهم » [٢] . إلا أنها، على الأقل ، تعكس اتجاه الانجليز نحو وضع العمل والخلق فى مرتبة أعظم من المرتبة التى يوضع فيها الذكاء

ويعتقد مستر ف . ل . لوكاس [٣] أن طبيعة الانجليز التى تدعوهم إلى الاعتماد على الغريزة تظهر بوضوح من وجهة نظرهم إلى التعليم والتربية على اختلاف أنواعهما . وهو يقول « إننا لا نزال نفضل لشبابنا ميادين اللعب

---

(١) The Times, December 24 th, 1932.
(٢) Macrae, Talents and Temperaments ,p. 148.
(٣) Mr. F.L. Lucas

أكثر مما نفضل لهم معامل «ايتون» ونفضل لجيشنا ثكنات «شلسى» أكثر مما نفضل له الطائرات والدبابات»[1]. ومن المؤكد أن أقوال نظار مدارسنا، وخاصة فى أيام الاحتفال بنهاية الدراسة والأيام المشابهة لها، تؤيد وجهة نظره. ففى هذه الخطب نجد أن قيمة العقل تقل إلى أقصى حد ممكن ويصبح للأخلاق وللعمل الذى يظن أنه يؤدى إلى اكتسابها الأهمية الأولى. وتظهر رغبتنا الملحة أيضاً فى تفضيل الخلق على الفكر، عندما نكرم شخصاً أو نؤبن ميتاً فاننا نذكر ما كان عليه من ذكاء وما قام به من أعمال، ولكننا نطنب فى الاشادة بطيبته، وحبه للناس، وتواضعه، وكرمه الذى لا ينقطع، ومؤازرته لأصدقائه.

ومع هذا فهناك من العلامات ما يدل على أن انتقاصنا للذكاء آخذ فى القلة. فقبل تقدم العلم الحديث كانت مشكلة الذكاء تبدو كأنها إلى حد ما مسألة أكل عليها الدهر وشرب. وكان بعض الناس يتساءلون فى قلق عما إذا كانت حياة الأفراد والجماعات سوف تتأثر إذا ما اعتمدت اعتماداً كبيراً على التفكير المقيد الموجه إلى هدف ما أم لا. ومما لا شك فيه أننا حتى الآن لم نصل إلى حد اعتبار الذكاء شيئاً له قيمته الذاتية. ولم يزدهر بيننا ذلك الحماس الصريح الذى هو من خصائص الفرنسيين، وإنما يسيطر علينا اتجاه يدعو إلى عدم الثقة بالعقل، إلا أننا مع هذا قد أخذنا فى إدراك أنه وسيلة للقيام بالأعمال المطلوبة، أى أنه وسيلة ضرورية مفيدة لتحقيق أغراضنا العملية.

ويذكر رجال الاقتصاد النتائج التى يمكن أن تتحقق نتيجة «السيطرة القائمة على التروى واليقظة». وحتى فى مجال الأعمال الحرة نجد عدداً قليلا من الرجال، وإن كان آخذاً فى الازدياد، يعتقد أن الصناعة عمل يقوم على التفكير

---

(1) Life and Letters, Vol. VII, p. 9.

ولا يمكن فصلها عنه ، وأنها تستلزم تفكيراً إنشائياً دقيقاً . وهؤلاء الرجال لا يقدحون فى الجرأة أو النشاط أو اليقظة ، إذ أنهم يعرفون تمام المعرفة أن هذه الصفات الخلقية وغيرها تحتفظ بقيمتها العظيمة التى لا جدال فيها . ولكنهم يشيرون إلى أن الجرأة والشجاعة لا ينجحان بمفردهما قدر نجاحهما عندما توجههما البصيرة النافذة الهادئة . أما فيما يتعلق بالضمير فانهم يرون أن الضمير الحى الفعال يحتاج إلى ما ينير له الطريق . وهم يرون أيضاً أن قراصنة البحار الأقدمين « أرباب الحذق والمهارة » الذين يعتمدون على مالهم من سيطرة وشخصية جذابة وإدراك ساذج إنما هم موضوع سخرية فى الغالب . ويدركون أن رجل الأعمال الناجح فى عصرنا هذا ليس هو الرجل المسيطر على غيره ، أو الشخص الجذاب ، بل إنه الرجل الذى ينبغى أن يعمل جاداً على حل مشاكله ، والذى ينبغى أن يكون من ذوى القدرة المتمرنين على ممارسة أعمالهم .

ومن الممكن أيضاً أن نلاحظ نفس الاتجاه — أى ازدياد تقدير الذكاء — فى كثير من نواحى الحياة . ففى التربية الحديثة مثلا — نجد أن وصف الطفل بالغرور أو « الاعجاب بالذات » لا ينطبق بالضرورة على الطفل الذى يتفوق على غيره من الوجهة العقلية ، وقد ينال هذا الطفل فى بعض الأحيان استحسانا معتدلا يقرب به من الطفل الذى يتفوق على غيره فى الألعاب الرياضية . ويشعر المدرسون شعوراً متزايداً بأن من الواجب عليهم أيضاً إظهار قدرات تلاميذهم وتحريرها وتنميتها ، رغم أنهم لا يزالون متفقين على عدم إهمال التربية الخلقية .

ولهذه الأسباب ولغيرها اهتم أصحاب الأعمال والمديرون والمدرسون بالذكاء وقياسه أكثر من ذى قبل . ثم أننا إذا نظرنا من ناحية الانتشار الذى حازته اختبارات الذكاء الحديثة ، فاننا نجد أن عدداً قليلا من الناس هم الذين لا يلقون بالا إلى

الموضوع ، حتى بين الذين لاتهمهم هذه الاختبارات اهتماما خاصاً ، أو اهتماما ينشأ بحكم عملهم . و يظهر الآباء بوجه خاص اهتماما كبيراً بطبيعة القدرة العقلية وقياسها ، نظراً لأنهم عرفوا تمام المعرفة ما للقدرة العقلية من أهمية توازى أهمية الأخلاق الكريمة والنوايا الحسنة بالنسبة لأطفالهم كما هو الحال بالنسبة لغيرهم من بنى الإنسان .

وسوف نعالج فى الجزء الأخير من هذا الكتاب موضوع اختبارات الذكاء ، فنبحث فى كيفية وضعها وتحقيقها ، والأغراض التى استخدمت فيها بنجاح ، ولكننا سنعالج أولا طبيعة الذكاء نفسه ، وهو موضوع تباينت فيه الآراء ، وقد يبدو من الغريب أنه من الممكن قياس شىء قد اختلف الناس فى تعريف طبيعته الأساسية ولو قياساً تقريبياً ، ولكن ليس فى هذا تناقض حقيقى ، كما أنه لا يوجد تناقض بين قدرة الكهربائيين على قياس قوة التيار الكهربائى فى حين أنهم لا يستطيعون تعريف الكهرباء . حقاً إن بعض علماء النفس يذهبون إلى أن تعريف بعض المعانى الكلية — كالذكاء — وتحليلها لايدخل فى نطاق علم النفس ، الذى يقتصر على وصف الظواهر العقلية وقياسها واكتشاف مابينها من تتابع أو ارتباط دائم ، لا أننا لانوافق على وجهة النظر هذه ، فقد تكون معرفة طبيعة الذكاء معرفة كاملة ، غير ضرورية للأغراض العملية من قياس الذكاء ، ولا شك أن «ترمان» على حق عندما يقول : « ليس من المعقول أن نتطلب من الشخص الذى يقيس الذكاء أن يعرفه تعريفاً كاملا »[1] ، ولكن العلم لم يوجد ليخدم الأغراض العملية فحسب . وأن دراسة طبيعة الذكاء جزء هام من علم النفس كما أن دراسة ماهية الكهرباء جزء هام من علم الطبيعة برغم ما قد تكون عليه من

---

(١) Terman, The Measurement of Intelligence, p. 44.

قيمة عملية ضئيلة للمهندسين .

ولكن قبل أن نعرض ما عرفه علماء النفس عن الذكاء وقياسه، يجدر بنا أن نذكر ملاحظة أساسية أخرى وهى : أن قراء الكتاب يلاحظون أن الذكاء ، لسوء الحظ ، من الموضوعات التى ينظر إليها الناس بشىء من الخوف ، و بشىء من التعصب الذى ينشأ عن هذا الخوف ، بل أن هؤلاء الذين يتألمون من قيمة العقل يرغبون فى أن يكونوا أذكى مما هم عليه فى الحقيقة ، أو يرغبون على الأقل فى أن يعتقد الناس أنهم أذكى مما هم عليه فى الحقيقة . وهؤلاء لا يسلمون بإمكان تعريف الذكاء ، ولا يسلمون بأن قدرتهم العقلية يمكن قياسها ومقارنتها بقدرة غيرهم . ولهذا يميلون إلى جعل الذكاء من الأشياء التى يحرم علينا البحث فيها ، و إلى مقاومة دراسته دراسة منظمة ، و إلى معارضة الوسائل التى يمكن أن يقاس بها ذكاء الفرد : وهم يحاولون أن يحافظوا على سعادتهم بالتشكيك فيما يعتقدون أنه يؤدى إلى نسفها نسفا .

والأمر كذلك بالنسبة للخلق . فنحن نجد بصدد هذه المسألة مقاومة عنيفة لأى نظرية قد يبدو أنها تقلل من الطبيعة الإنسانية ، فيبدو أن الناس يرون أن عليهم أن يحتفظوا بتقديرهم لأنفسهم بأى ثمن ، فمثلا لو اخترع شخص ما جهازا لايخطىء، يكشف عن الغرور والصفات الأخرى غير المرغوب فيها، فمن المرجح أنه سوف يكون ضحية السخرية ثم الإهانة الشديدة، وستقوم ضده ولا شك محاولات عنيفة لمنعه من استخدام جهازه .

وهذا الكتاب يعالج الذكاء بشكل عام . ولسنا الآن بصدد التعصب الذى قد تثيره عادة النظريات الصريحة المتعلقة بالخلق . ومانحتاجه هنا فيما يتعلق بالعقل هو تفكير متسع الأفق ، ومن المحتمل أننا حين نبدى هذه الملاحظة فى هذا الفصل ، إنما نبشر برأى جديد .